سيدة الكتابة

«١»

الطيبون والأشرار خرجوا كلهم وراء نعش يوسف بك وهبي يودِّعونه إلى مثواه الأخير. بين صفوف المشيعين تساند محمود المليجي على توفيق الدقن يهمس له: «الظاهر خلاص، الدفعة مطلوبة وباين الحكاية بالدور يا تيفة»، ويرد الدقن مجفِّفًا دموعه: «كله على ودنه يا ابوحنفي»!

ذلك المشهد رسمتْه على الورق سناء البيسي في أحب كتبها إلى قلبي «سيرة الحبايب». وروعة سناء أن رسمها يصف بدقّة، ويحلل برقّة، ويكشف الخفايا والخبايا، فهي ترسم بالكلمات تمامًا مثل زوجها الفنان منير كنعان الذي كان يبدع في رسم اللوحات، كلاهما يرسم، هي ترسم بالكلمات، وهو يرسم بالفرشاة.

ما حدث بين منير وسناء يشبه حكايات ألف ليلة؛ فقد رآها للمرة الأولى حين كانت طالبة في كلية الآداب قسم صحافة، ولم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، لكنه التقط في عينيها نورًا، ووهجًا، ورأى بداخلها جمالا أراد أن يسجله في واحدة من لوحاته التي تتصدر غلاف مجلة «آخر ساعة»، ووافقت طائعة، وسارت معه منساقة مبهورة منوَّمة -على حد تعبيرها- وجلست أمامه موديلًا يحتضن زهر المشمش، وأدمنت الجلوس أمامه ليرسمها، وكانت تمضي ساعات وهي تجلس في

وضـع متحجـر، تعـاني جاهــدة أن لا يهتــز لهـا طـرف أو ترتعــش عيناهـا أو تسـند فقـرات عمودهـا الفقـرى المتيبـس لطـول جلوسـها عـلى مقعـد خشـبي، لكـن يهـون التعـب كلـه في لحظـات للحـوار والوئـام والتهافـت والتراحـم والحـب والارتبـاط ورسـائله الخاصـة التـي يدنـدن لهـا بهـا عندمـا يسـتغرقه الرسـم: «يالـلي نويـت تشـغلني طاوعنـي وابعـد عنـي.. إن حبيتـك يبقـى يـا ويلـك مـن حبـي.. وراح أشْـغل فكـري وبـالي عليـك وأحبـك وأفضـل أعيـش في هـواك لحـد مـا ييجـي يـوم وألاقيـك آمنـت بحبـي وجيـت برضـاك».

وذهبـتْ إليـه راضيـة مطمئنـة، وتزوجـا، وعاشـا معًـا ليغـدو تأثـيره وآثـاره حـاضرة دومًـا في مـا تقـوم بـه، ومـا تنطـق بـه، ومـا تنظـر إليـه، ومـا تنتقـده، ومـا تفتقـده، ومـا تسـعى إليـه، ومـا تتجنبـه، ومـا تحبـه، لـذا تقـول عنـه في حوارهـا المهـمّ مـع الصحفيـة أمـل سرور: «أَلَـمْ يرسـم عـلى وجهـي الابتسـامة والغضبـة وحُمـرة الخجـل وتهويمـة الشـجن.. أَلَـمْ يُذِقْنـي عصـارة الكـرز ورحيـق الياقـوت ويسـافر بي في حمـرة الفجـر والشـفق وخـدود الـورد.. أَلَـمْ يمنحنـي هِبَـة عمـري، ابنـي هشـام».

«٢»

لم يصنـع فـارق الثمانيـة عـشر عامًـا حاجـزا بـين منـير وسـناء، فمنـير وُلـد في فبرايـر عـام ١٩١٩، أمـا سـناء فقـد وُلـدت يـوم الجمعـة الأول مـن ينايـر عـام ١٩٣٧.

حينـذاك أعلـن أحمـد حسـين عـن حـزب «مـصر الفتـاة»، وتـم الانتهـاء مـن تصويـر فيلـم «سـلامة في خـير» لنجيـب الريحـاني، وعُـرض فيلـم «نشـيد الأمـل» بطولـة أم كلثـوم، وفيلـم «ليـلى بنـت

الصحــراء» لكــن تــم إيقــاف عرضــه لاعــتراض الخارجيــة الإيرانيــة باعتبــاره يــسيء إلى أحــد الرمــوز الإيرانيــة.

وقــام رئيــس الديــوان الملــكي ببــثّ شــائعة أن «الوفــد» حــزب يسيطر عليـه الأقبـاط بقيـادة مكـرم عبيـد، فأُقيلـت وزارة «الوفـد»!

في هــذا التوقيــت وُلــدت ســيد الكتابــة ســناء البيــسي، وكان والدهــا يشــغَل منصــب مديــر مصلحــة الآثــار العربيــة، وكان أقــرب الأصدقــاء إليــه حســن عبــد الوهــاب عــالم الآثــار الإســلامية الــذي قــام بتحديــث قبــة الصخــرة في القــدس، أمــا والدتهــا فكانــت تــرأس لجــان الأوقــاف الأهليــة التــي تنــادي بحــل الوقــف عــلى أســاس الــشرع، واســتقبلها الرئيــس عبــد النــاصر في بيتــه بمنشــية البكــرى ليُنصــت إلى وجهــة نظرهــا.

حــار والدهــا في تســميتها، فســمّاها صديقــه عــالم الآثــار الإســلامية الــذي قــام بتحديــث قبــة الصخــرة في القــدس «ســناء» لتحمــل المجــد والرِّفعــة لأبيهــا ولعائلتهــا ولمــصر بأسْرهــا، وظلــت الفتــاة الصغــيرة نهمــة بحــب المعرفــة، فكانــت لا تنــام إلا وقــد احتضنــت كتابًــا ينــام عــلى صدرهــا، فقــد ورثــت مــن أمهــا نهَــم القــراءة.

وكانــت أمنيــة والدهــا أن يراهــا يومًــا مثــل الدكتــورة عائشــة عبــد الرحمــن، بعدمــا لمــس عشــقها للورقــة والقلــم، لكــن لم يكــن هنــاك قســم لدراســة الصحافــة في كليــة الآداب، فــرأى والدهــا أن تغــدو محاميــة لتســتعين بمكتبتــه القانونيــة العامــرة، وبالفعــل قدمــت أوراق نجاحهــا في شــهادة التوجيهيــة لكليــة الحقــوق جامعــة عــين شــمس.

وقبــل دخــول الكليــة بأيــام ســمعت صــوت صديقتهــا صــافي نــاز كاظــم ينطلــق في مدخــل البيــت الــذي كانــت تســكنه في حــى العباســية، تــصرخ قائلــة: «فتحــوا قســمًا جديــدًا للصحافــة في جامعــة

القاهـرة»، فسـارع والدهـا لينقـل أوراقهـا مـن الحقـوق إلى الآداب تحقيقًـا لرغبـة ابنتـه.

وذهبـت سـناء إلى قسـم الصحافـة بكليـة الآداب جامعـة القاهـرة، والتقـت الأسـتاذ مصطفـى أمـين، وكتبـت عـن لقائـه تقـول: «حـضر الأسـتاذ مصطفـى أمـين ليلقـي علينـا محـاضرة لم أفهـم معظمهـا، لأنـه كان ينفـث كلماتـه بـين أنفـاس سـيجارته التـي غرسـها بـين شـفتيه فضاعـت مـع الدخـان».

وقـرأ العمـلاق مصطفـى أمـين مـا كتبـت، فقـرر أن تعمـل في «أخبـار اليـوم»، وتدرجـت داخـل هـذه المؤسسـة التـي صنعـت أسـاطير الصحافـة، ثـم انتقلـت إلى «الأهـرام» لتلتقـي بنـت الشـاطئ، وتصـير صديقـة لهـا، وقريبـة إلى قلبهـا، بـل صـارت الدكتـورة عائشـة تمـدح كتاباتهـا، لتحقـق سـناء حلـم أبيهـا!

«٣»

تأثـرتُ بهـا كثـيرًا، وعجـزتُ عـن الكتابـة عنهـا طويـلا، وشـعرتُ أنهـا لم تحصـل عـلى مـا تسـتحق مقارنـةً بعطائهـا غـير المحـدود للصحافـة، وأشـعر دائمًـا أننـي مديـن لهـا، وأنهـا أسـتاذتي حتـى لـو لم نلتـقِ يومًـا، ولم تنشـأ بيننـا أي علاقـة.

وربمـا مـن أسـباب أننـي عجـزتُ طويـلا عـن الكتابـة عنهـا هـو أن المبـدع عمـر طاهـر كتـب عنهـا فأوجـز كل مـا يُقـال، وأغلـق -كعادتـه- البـاب خلفـه عـلى مـن يـأتي بعـده.

لكـن الكتابـة كلهـا لا تعطـى سـيدة الكتابـة حقهـا، فقـد صنعـت مـن مجـلات المـرأة شـيئًا تجـب دراسـته وتدريسـه وتعميمـه، وخلقـت فرعًـا جديـدًا في الصحافـة كان قبلهـا هامشًـا وهامشـيًّا،

ومعهـا صـار مهـمًّا ومركزيًّـا، وبعدهـا خـرج الجميـع مـن عباءتهـا.

فحـين شرعـت سـناء البيـسي في إصـدار مجلـة «نصـف الدنيـا» في فبرايـر ١٩٩٠ طلـب منهـا ثلاثـة مـن جبابـرة الكتابـة أن تحجـز لهـم صفحـات أسـبوعية يكتبـون فيهـا.

الأول هـو الأسـتاذ أحمـد بهـاء الديـن، أمـا الثـاني فهـو العـم نجيـب محفـوظ الـذي قـرر أن يمنحهـا كل مـا يجـود بـه قلمـه ليكـون حكـرا لهـا وحدهـا، فخرجـت عـلى صفحـات «نصـف الدنيـا» أصـداء سـيرته الذاتيـة.

أمـا الثالـث فهـو العمـلاق يوسـف إدريـس الـذي طلـب منهـا أن تحجـز لـه الصفحـة الأخـيرة ليكتـب فيهـا مذكراتـه، وقـال لهـا يومهـا: «سـأكتب لأول مـرة قصـة حيـاتي الحقيقيـة مـن بدايـة مولـدي طفـلا في قريـة البـيروم، سـأكتب أخطـر أعـمالي الأدبيـة التـي فيهـا تعريـة للنفـس والتاريـخ والأصـل والنسـب والأسـباب والمسـببات ودور الأم والأخـت والجـدة وأصـل المعرفـة».

وبـدأ إدريـس يكتـب فصـلا وآخـر وآخـر، ويواصـل اعترافاتـه بجـرأة لم يصدقهـا أحـد، فقـد كانـت عبـارات الأديـب الجـريء تتجـول بحريـة جامحـة، وظـل يكتـب أحـداث حياتـه وفجـأة وجـدت صوتـه يعتـذر عـن التكملـة، وحاولـت سـناء أن تثنيـه عـن قـرار الانقطـاع عـن الكتابـة لكـن دون جـدوى، ولم يكتمـل هـذا العمـل الأدبي الـذي حمـل عنـوان «ملكـة» الـذي كان يعتـبره إدريـس الأهـم في حياتـه.

مـا حققتـه سـناء البيـسي في مجلـة «نصـف الدنيـا» كان بالدنيـا كلهـا، فـلا يمكـن أن يدَّعـي أحـد أنـه أتى بمـا لم تـأتِ بـه سـناء البيـسي، فقـد صنعـت كل شيء، مـا يخطـر ببالـك، ومـا سـيخطر في بـال الأجيـال القادمـة.

فقـد كان القـارئ يبحـث عـن هـذه المجلـة المتخصصـة في شـؤون

المرأة رغم أنها كانت الأعلى سعرًا، لكنها كانت الأغنى فنًّا في السوق الصحفية، لذا كانت تَنْفَد عن آخرها، وعلى الرغم من أن سعر المجلة -بالهدية- كان خمسة عشر جنيها، لكنها كانت رائدة «فن المرتجع صفر»!

وهو فنٌّ لو تعلمون عظيم!

محاكم النقد!

مـن حـق أصغر كومبارس أن يصغـي إليه الناس ويحترموه، لكن الجمهور المتوحش اعتقد أنه اشـترى كل شيء بفلوسـه!

سامى السلاموني

ناقد أحبَّ مَن ينتقدهم

«١»

كان يحب مَن ينتقدهم، وينتقد مَن يحبهم!

وكان يمسك بين يديه سيف الناقد الحق الذي لا يبغي جزاءً ولا شُكورًا، لكنه أيضًا كان يحمل قلب مُحب بحق لكل مَن يكتب عنهم، فلم يُضبَط مرة واحدة متربصًا أو مترصدًا لأحد، فلم يكن ينتقد لينتقم، وإنما ليجدد ويطوِّر.

وكم من كُتَّاب لم يكن يعرفهم أحد، وحين سلَّط عليهم ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق -على حد تعبير شقيقته فريدة. كان يدرك أن ما يكتبه يجب أن يصل إلى القارئ مباشرة، فلم يتقعر أو يستعرض في كتاباته بل كان واضحًا وجاذبًا، فلم يطغَ عمق فكرته على متعة سرده، ولم تطغَ روح الناقد على بساطة التعبير.

هذا هو رجاء النقاش، الناقد الكبير والإنسان النبيل والمثقف الذي كان يثق بنفسه فيمجِّد مواهب الآخر -مثلما وصفته سناء البيسي- فلم يجد أي غضاضة في أن يكتب كتابًا ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير عن شاعر شاب أصغر منه سنًّا، وأقل منه شهرة، وأن يصفه بشاعر الأرض المحتلة، ليكتشفه ويقدمه للناس ليصير اسمه علامة في تاريخ الشعر، ويصبح الشاعر الكبير محمود درويش. والمدهش أنه رغم كونه بالأساس ناقدًا أدبيًّا فإنه كتب كتابًا كاملا عن الإمام المراغى شيخ الأزهر، ربما

بسبب العبارة الأهم والأجمل والأروع التي قالها الشيخ الجليل «قدِّموا لي أي شيء ينفع الناس وأنا آتيكم بسند له من الشريعة الإسلامية»، فقد وقعت هذه العبارة في قلب النقاش الذي وجد نفسه قد وقع أسيرا لصاحبها.

وربما لأنه تذكَّر والده الشيخ عبد المؤمن، وجدّه الذي كان مقرئًا للقرآن لذا يقول: «إنني استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفني القادر على التأثير الكبير في النفس، وكنت شغوفًا بحفظ القرآن الكريم في السن المبكرة، وقد ساعدني والدي عبد المؤمن النقَّاش على ذلك لأنني كنت أجد صعوبة في قراءة أي سورة وحدي، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقًا رفيعًا سليمًا يمكّنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البدهي أنها واجب على الجميع، ولقد ساعدني على تذوق القرآن أن جدي كان مقرئًا للقرآن في القرية وكان صاحب صوت جميل».

«٢»

في عام ١٩٥٢ ترك رجاء أسرته الريفية البسيطة، وأشقاءه السبعة، الذين حاربت الأسرة من أجل تعليمهم جميعا، في قرية «منية سمنود» بمحافظة الدقهلية، واتجه إلى القاهرة في الوقت الذي لم يكن أحد من أبناء طبقته يجرؤ على دخول محلات «شملا»، و«شيكوريل»، و«جروبي»، فهذه الأماكن كان مقصورة

علـى الباشـوات والبهـوات، وكان لا يحـق لصغـار الموظفـين سـوى التسـكع في شـوارع وسـط البلـد، والنظـر إلى الفاترينـات وواجهـات المحـلات دون أن يضـع أحـد منهـم قدمـه داخلهـا، وكان المصريـون غربـاء يعيشـون عـلى هامـش الحيـاة -عـلى حـد وصـف الدكتـور يونـان لبيـب رزق.

لكـن قامـت الثـورة، والتحـق رجـاء بجامعـة القاهـرة ودرس في كليـة الآداب وتخـرج في قسـم اللغـة العربيـة عـام ١٩٦٥، ثـم ذهـب للعمـل محـررًا في مجلـة «روزاليوسـف» لمـدة عامـين، ثـم انتقـل للعمـل محـررًا أدبيًّـا في مؤسسـة «أخبـار اليـوم»، ولمـع النقـاش وبـدا عَلـمًا ونجـمًا وسـط كوكبـة مـن كبـار مثقفـي مـصر عـلى مـدار تاريخهـا، فجلـس مـع العقـاد وطـه حسـين، وصـادَقَ نجيـب محفـوظ ويوسـف إدريـس، واكتشـف محمـود درويـش والطيـب صالـح، وغيرهـم، والتقـى جـمال عبـد النـاصر حين دعـاه عـام ١٩٦٣ ضمـن أعضـاء المؤتمـر الأول لكتـاب آسـيا وإفريقيـا فدخـل قـصر عابديـن للمـرة الأولى لينبهـر بنـاصر وبعابديـن ويصـف المشـهد قائـلا: «وقفنـا في صفـوف متراصَّـة ومـرَّ علينـا عبـد النـاصر وصافحنـا واحـدًا واحـدًا فرأينـاه عـن قـرب، وأدركنـا صحـة مـا كان يقـال عنـه مـن أن لـه هيبـة وسـحرًا وجاذبيـة وعينـين مليئتـين ببريـق اسـتثنائي يـأسر القلـوب.. كان هـذا كلـه صحيحًـا، فقـد مسّـتنا كهربـاء عبـد النـاصر فاهتـزت منـا الأعصـاب والمشـاعر، وأدركنـا جميعًـا أننـا في حـضرة رجـل عظيـم».

ويسـتمر النقـاش في وصـف أجـواء اللقـاء قائـلا: «وبعـد أن انتهـت المصافحـات انتقلنـا إلى قاعـة العشـاء التـي تبهـر العيـون وتخطـف الأبصـار مـن فـرط جمالهـا وبهائهـا، وكان سـقفها كلـه مطليًّـا بالذهـب، وكلـما نظرنـا إلى هـذا الجـمال وهـذا الجـلال

شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالي ألف ليلة، مع فارق واحد هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان، بل كنا في معظمنا فقراء أبناء فقراء، ومَن كان منا أفضل من ذلك فهو في أحسن الفروض من متوسطي الحال، وكنا ندرك جميعًا أنه لولا عبد الناصر الذي فتح لنا الأبواب وقال لنا ادخلوا، ما كان لنا أبدًا أن ندخل هذه القاعة الذهبية في قصر عابدين، ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسيء بنا الظنون، فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين».

«٣»

وقبل ثلاثين عامًا من لقاء النقاش وعبد الناصر، وتحديدا في ثلاثينيات القرن الماضي كان الدكتور إسماعيل أحمد أدهم قد أصدر كتابًا عنوانه «لماذا أنا مُلحد؟» وقد تم طبع الكتاب وتوزيعه، ولم يتعرض للمصادرة، وكل ما حدث هو أن بعض المثقفين في ذلك العصر أصدروا ردًّا على هذا الكتاب، ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي أصدر كتابًا بعنوان «لماذا أنا مسلم؟» وفيه رد علمي قوي ومُقنِع على دعوى الإلحاد التي نادى بها الدكتور أدهم في كتابه الغريب.

والمدهش أنه لم يترتب على كتاب «لماذا أنا مُلحد؟» أي فتنة فكرية أو دينية، ولم يتعرض صاحب الكتاب للاعتقال أو المحاكمة، ولم يحاول أحد أن يقتله رغم إعلانه الصريح للإلحاد، وفي ذلك أن أصحاب الإيمان في ذلك العصر كانوا على ثقة بأنفسهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان القوي العميق،

وقد وجدوا أنهم قادرون على التصدى لدعوى الإلحاد بالحجة والبرهان والمنطق، وبهذه الطريقة انتصروا في معركتهم للدفاع عن الإيمان.

رجاء النقاش هو من روى هذه الواقعة، وجعل من هذه الواقعة درسًا يجب أن يتعلمه كل جيل يظن في نفسه أنه قد بلغ حد الكمال، وكشف ما جرى لصاحب الكتاب الذي ساءت أحواله، واضطربت أعصابه، وامتلأ عقله بالتشويش والارتباك، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره؛ فقد وُلد في نفس العام الذي وُلد فيه نجيب محفوظ في الإسكندرية، لكنه لم يعد أمامه أي ضوء ينير طريق العمر، ولم يعد يتحمل، فقرر الانتحار، وألقى بنفسه في البحر!

وخرجت الصحف في اليوم التالي تقول: انتحار صاحب كتاب «لماذا أنا مُلحد؟».